تقديم عام "للمقهى الأدبي" المتعلق بكتاب "قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي" لمؤلفه، المرحوم محمد جسوس

المختار الهراس

يعد مؤلف "قضايا منهجية في البحث السوسيولوجي" لصاحبه محمد جسوس أحد أهم المساهمات العلمية في تكوين الباحثين والطلاب في النظرية والمنهج السوسيولوجيين. إنه يمثل عصارة سنتين من التكوين لفائدة طلاب السلك العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. ويرجع الفضل في نشره لفئة من ألمع طلابه، وعلى رأسهم نجيب الخدي الذي تكلف مشكورا، ليس فقط بجمع وتنسيق الأعمال المتصلة به، وإنما أيضا بالمشاركة في المقابلات التي سمحت بإنتاج الكثير من المعلومات والأفكار التي يتضمنها.

ولا يخامرنا شك في أن القضايا المنهجية المطروحة في هذا الكتاب متداولة حاليا بشكل قوي في حقل السوسيولوجيا، وذلك من زاوية علاقة هذا العلم بالأنثروبولوجيا، والتاريخ، والاقتصاد، والديموغرافيا، وعلم الإحصاء، وعلم النفس، وعلم السياسة، وكذا عبر توظيف بعض مكتسباته الأساسية، المحلية والدولية، على الصعيد النظري والمفاهيمي والمنهجي. ولا شك أن أهم ما يكشف عنه مؤلف محمد جسوس اهتمامه القوي والمتواصل بالبحث الميداني، وتفضيله إياه على مجرد الاقتصار على تحليل إحصاءات ثانوية، وبحثه الدؤوب عن الملاءمة بين النظرية ومعطيات الميدان. لقد رجع إلى حقبة تأسيس السوسيولوجيا في القرن التاسع عشر فأبرز بوضوحه وعمقه الفكريالمعهود مختلف السجالات والنقاشات النظرية التي كانت دائرة آنذاك بين السوسيولوجيا، من جهة، والاقتصاد والتاريخ وعلم النفس، من جهة أخرى. كما أشار إلى التوجهات السوسيولوجية النقدية اتجاه بعض المفاهيم الرائجة في العلوم المجاورة من قبيل السوق، واللاشعور، والفرد، والنخبة، والتطور، والتنشئة، والديموقراطية...

وعلى صعيد العلاقة بين السوسيولوجيا والتاريخ، أبرز محمد جسوس كيف أن الأولى تهتم أساسا بتوظيف الأنساق والبنيات والبحث عن التقنينات والقوانين التي تنتظم الأحداث وتضفي نوعا من المنطق والعقلانية على مجرياتها ، بينما يركز الثاني على الزمن الماضي لفهم الأحداث والوقائع وإنتاج المعطيات الخام .إلا أنه بين، في مقابل ذلك، أهمية السياق التاريخي والنظرية الوسيطة، واستحالة بناء السوسيولوجيا لقوانين عامة. وبينما تهتم بعض التيارات السوسيولوجيةوالأنثروبولوجية بالحاضر، كما هو الشأن بالنسبة للنظريات الوظيفية

والبنيوية، يركز العديد من المؤرخين على تاريخ النخب عوض تاريخ الشعوب، وتاريخ المدن بدل البوادي. وبسبب اختزالية هذا الإرث البنيوي-الوظيفي، عجزت السوسيولوجيا، في نظره، عن بلورة قدرات حقيقية وفعالة في دراسة التغير الاجتماعي والتحولات التاريخية الكبرى. ومع كل ذلك، فقد سمحت التفاعلات المتراكمة بين التاريخ والسوسيولوجيا بفتح الحدود التخصصية، والشروع في تطوير حوار بناء بين هذه العلوم المتجاورة، توج ببروز السوسيولوجيا التاريخية لدى كل من ماكس فيبر، وكارل ماركس، وبارينغتوم مور، ومؤرخي مدرسة الحولياتالفرنسية، وآخرين غيرهم.

أما بالنسبة للمجتمع المغربي، فيبدو واضحا اهتمام السوسيولوجيين بإعادة توظيف المعطيات والتمثلات التاريخية. كما يتضح نزوعهم نحو الاهتمام بالتاريخ المحلي والجهوي، وبالتاريخ الاجتماعي والوقائع الصغيرة، عوض الاقتصار على تاريخ الفئات العلياعتمادا على الوثيقة المكتوبة.

في سياق هذه المقاربات النظرية والمنهجية التي قبل بعض طروحاتها وتوجهاتها، وتحفظ على بعضها الآخر، عمد محمد جسوس إلى التعريف ببعض التقنيات الكيفية والكمية، مبينا منافعها وحدودها وكذا طرق توظيفها والاستفادة منها في العلوم الاجتماعية بصفة عامة، ومقيما لمدى ملاءمتها في دراسة قضايا ومواضيع محددة. وقد ركز في هذا المضمار على تحليل بعض الإحصاءات الرسمية والدولية، وغرضه من وراء ذلك تبيان ما تخفيه وما تتركه في الظل. كما اهتم بالتقنيات البيوغرافية مفسحا مجالا واسعا لعرض مختلف أساليب الاشتغال بها،وكذا طرق استغلالها في الأبحاث السوسيولوجيةوالأنثروبولوجية. وضمانا لاستفادة مرضية وفعالة من النصوص والمعطيات الكيفية المجمعة، بما في ذلك البيوغرافية، أدرج أيضا، ضمن القضايا المنهجية المتضمنة في هذا الكتاب، تقنية تحليل المحتوى التي لا يكتمل التحليل بدونها.

وإذا كان هذا المؤلف (بفتح اللام) يستحق لوحده ندوة علمية موسعة، فإن إطار "المقهى الأدبي" الذي يقترحه كرسي فاطمة المرنيسي لإثارة النقاش حول بعض القضايا والمساهمات العلمية المتميزة لا يتسع لذلك. لذا، رجحنا في البداية أن تكون جلسة 28 يناير مجرد محاولة لإثارة الشهية، وذلك بمناقشة بعض القضايا والتساؤلات دونما مزيد من التعمق والتفصيل. على أن تنظيم ندوة تشمل مختلف أبحاث أستاذنا سي محمد جسوس، وبالعمق اللازم، يتطلب زمنا أطول قصد الإعداد المناسب لحدث علمي يليق بما تميز به المرحوم من مكانة علمية قل نظيرها. وقد طرحت أصلا فكرة الندوة الشاملة حول المساهمات العلمية لأستاذنا محمد جسوس. وبتضافر جهودنا جميعا، قد نوفق على إخراجها للوجودفي غضون السنة المقبلة.